البلاغة العربية المهاد المعرفي والامتداد العلمي الواصف حتّى نهاية القرن الخامس الهجري

محمود شاكر محمود عدنان حسين عبدالله

الجامعة المستنصرية / كلية الآداب /قسم اللغة العربية وزارة التربية / تربية الكرخ الثانية

Drandlus47@gmail.com barakat.adnanhousain@gmail.com

المستخلص :

بدأت قبسات الظواهر البلاغية بالإلتماع في ثنايا الأقاويل البشرية ؛ عندما انتقل الإنسان بلغته من منطقة الحقيقة إلى رحاب المجاز ؛ ليحدث خرقاً في صفرية اللغة اليومية ومستواها المعجمي الصلد ، وينتهك قواعدها المنطقية وسننها المعيارية المتواطئ عليها ، وتكون هذه النقلة بملكة فطرية نابعة من حاجة ذوقية لدى صناع الكلام في تفكيك هذا النظام وإعادة تشكيله من خلال ملكة البلاغة الفطرية لديهم ، والتي تنتج أقوالاً مغايرة للغة اليومية السطحية المأشوبة والمحدودة في أفقها المعنوي ؛ لتنقل الملكة البلاغية هذه الأقاويل اليومية وتعيد انتاجها في أقوال فعّالة مؤثرة ، تنتقل من سكونية الحقيقة إلى حركية المجاز بسعة آفاقه الدلالية ، فتنتظم الأقوال الإنشائية ضمن هذه الآلة البلاغية الصناعية في أنساق من أفانين الكلم نابضة بموسيقى متناغمة متدفقة تأسر النفوس وتسحر الألباب ؛ فتكون هذه الأقاويل مفارقة للسائد من الكلام وتحمل في ثناياها طاقة تأثيرية تجذب السامع لها وتستهويه وتدفعه إلى فعل شيء واعتقاده أو الامتناع عن فعله واعتقاده مع إمتاعه وإقناعه بكفاءة تداولية ، تحمل مقاصد صانع هذه الأقاويل ومنتجها بملكته البلاغية التي تعيد إنتاج الخطاب وتصوغه ، وتستمكن من قوانين اللغة في الاستعمال اليومي .

لهذا انتقلت هذه القبسات البلاغية من ملكة فطرية عرفية ؛ لتكون علماً واصفاً استقرائياً يرصد هذه الظواهر والصور ، ويحيط بحدودها ويستنبط قوانين متأتّية من منتج هذه الملكة البلاغية الفطرية ، وتستكشف أنظمته وأنساقه ، وتبوّب صوره وأنماطه وتصنّف أجناسه ، فتستقصي في هذه الملكة البلاغية معناها الجامع لصور تقع في وجوه كثيرة ، بدءاً من التخييل والإيهام وصولاً إلى الحجج المقنعة المتوزّعة على سلّم الاحتمال ، فترصد

بمجسّات العلم المنهجي الواصف مواطن هذه القبسات المضيئة في ثنايا القول مندفعة بسؤال منهجي مالذي يجعل بعض الأقوال أحسن من بعض ؟ ؛ لتتغيا بهذا السؤال مواطن أسرار البلاغة بأنساقها القولية الساحرة والآسرة للنفوس ، وتحيط بتخوم بحرها عميق الأغوار ، وتستخلص جواهرها النفيسة ؛ لينتقل العلم الواصف للملكة البلاغية وأسرارها ، إلى مشاريع علمية واعدة انبثقت من رحاب مجاز القرآن وتكلّلت باستقصاء بلاغة البيان الحجاجية الإقناعية ، وصور البديع بآفاقها الجمالية الإمتاعية ؛ لتأتي أكلها في استكشاف أسرار البلاغة ودلائل إعجازها القولي ، وسرّ فصاحتها وصحّة تناسبها في الأقوال التي تجري في السمع مجرى الألوان في الأبصار ؛ لتصل هذه المشاريع إلى غائيتها النهائية فتكتمل البلاغة وتنضج ويشتدّ عودها ، وتستقل كعلم منهجي واصف في منتصف القرن الخامس الهجري من خلال مشروعي الجرجاني والخفاجي ، ويصبح هذان المشروعان منطلقاً لما جاء بعدهما من مشاريع بلاغية مائزة عند السكّاكي (ت ٦٢٦هـ) وحازم القرطاجنّي (ت ٦٨٤هـ) .

الكلمات المفتاحية (الملكة البلاغية الفطرية ، البلاغة وتقعيد اللغة ، بلاغة البيان ، البديع ومحاسن الكلام)

summary:

The flashes of rhetorical phenomena began to shine in the folds of human sayings; when man moved with his language from the region of truth to the spaciousness of metaphor; to make a breach in the zero of everyday language and its solid lexical level, and to violate its logical rules and its agreed-upon standard laws, and this shift is by an innate faculty stemming from a tasteful need among speech makers to dismantle this system and reshape it through their innate faculty of rhetoric, which produces statements that differ from the superficial, mixed everyday language and limited in its moral horizon; so that the rhetorical faculty transfers these daily sayings and reproduces them in effective, influential statements, moving from the static nature of truth to the dynamism of metaphor with its broad semantic horizons, so that the performative statements are organized within this artificial rhetorical machine in systems of the arts of words pulsating with a harmonious, flowing music that captivates souls and enchants hearts; These sayings are a departure from the prevailing discourse and carry within them an influential energy that attracts the listener to them, entices him and pushes him to do something and believe it or refrain from doing it and believing it, while entertaining him and convincing him with communicative efficiency, carrying the intentions of the maker and producer of these sayings with his rhetorical faculty that reproduces and formulates the discourse, and is able to master the laws of language in daily use. Therefore, these rhetorical flashes have moved from an innate to a conventional faculty; To be a descriptive, inductive science that monitors these phenomena and images, encompasses their boundaries, and deduces laws resulting from the product of this innate rhetorical faculty, explores its systems and

patterns, classifies its images and patterns, and classifies its genres, so that it investigates in this rhetorical faculty its comprehensive meaning for images that occur in many aspects, starting from imagination and illusion and reaching convincing arguments distributed on the ladder of probability, so that it monitors with the sensors of the descriptive, methodical science the locations of these luminous flashes in the folds of the saying, driven by a methodological question: What makes some sayings better than others?; to seek with this question the locations of the secrets of rhetoric with its enchanting and captivating verbal systems for souls, and encompasses the borders of its deep sea, and extracts its precious jewels; The science describing the rhetorical faculty and its secrets moved to promising scientific projects that emerged from the realm of the metaphor of the Qur'an and were crowned with the investigation of the persuasive rhetoric of argumentative statement, and the images of rhetoric with their aesthetic and enjoyable horizons; to bear fruit in exploring the secrets of rhetoric and evidence of its verbal miracle, and the secret of its eloquence and the correctness of its harmony in the sayings that flow in the ear as colors flow in the eyes; for these projects to reach their final goal, so rhetoric is completed and matures and its branch is strengthened, and it becomes independent as a descriptive methodological science in the middle of the fifth century AH through the projects of Al-Jurjani and Al-Khafaji, and these two projects become the starting point for what came after them of distinctive rhetorical projects with Al-Sakaki (died 626 AH) and Hazim Al-Qartajni (died 684 AH).

Keywords (innate rhetorical ability, rhetoric and language codification, rhetoric of expression, rhetoric and the beauties of speech)

المبحث الأوّل :نشأة البلاغة العربية (الملكةُ الفطريةُ وتجذّر النسق المعرفيّ):

تسبقُ الظواهر المعرفية إحاطة العلم بها ، والذي يكون تالياً لها ، فالمعارف تنشأ سابقة للعلم لأنّها ((المعلومات والفهم اللذان يكتسبهما الإنسان من خلال التعلّم أو التجربة)) (سرحان، ٢٠١٤، صفحة ٤) سواءٌ كانت هذه المعارف فطرية ، أو مكتسبة ((عن طريق الوعي وفهم الحقائق أو اكتساب المعلومة عن طريق التجربة ، أو من خلال تامّل النفس ، أو من خلال الاطلاع على تجارب الآخرين)) (سرحان، ٢٠١٤، صفحة ٥) ، هكذا تنشأ المعرفة الفطرية بالظواهر والمعلومات والحقائق ، ليتصدّى لها العلم فيما بعد بالرصد والإحاطة والتعليل والتفسير ، لأنّ العلم هو ((عملية تكثيف متوالية تنتهي إلى تجريّد خصائص مشتركة من شتات الظواهر الملاحظة)) (العمري، ٢٠٠٤، صفحة ٤٠٧)، هكذا تنشأ الظواهر المعرفية ، لتشكّل نسقاً معرفياً ينتظم بعلاقة قائمة بين عناصر الظواهر المتنوعة ، ومنها الظواهر البلاغية كونها في عصر ما قبل الإسلام ((ملكة فطرية تنشأ بالسماع فطرة ثمّ النسج على منوالها ، وتكرار استعمالها ؛ هكذا كانت البلاغة عند العرب قبل الإسلام هي ملكة التواصل ،

لأنّها ارتبطت بمفهوم الوصول والإيصال)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ١٦) فالملكة الفطرية التي يليها التوافق العرفي والنسج على منوالها ، لتكوّن أعرافاً متواضعة بين العرب قبل الإسلام يؤكّده بيت أوائل شعرائها ومن له قدم السبق في الفحولة الشعرية امرؤ القيس في قوله : [الكامل –ق– المتواتر]

عوجاً عَلى الطَلَلِ المَحيلِ لِأَنَنا نَبكي الدِيارَ كَما بَكى اِبنُ خِذامِ

فالشاعر يجسّد في بيته المواضعة العرفية ، التي أخذها ممّن سبقه وهو الشاعر ابن خِذام ، والذي سار الشاعر امرؤ القيس على العرف التعبيري المتواضع بين الشعراء، الذي انتلقت فيه الظواهر البلاغية ، والأشكال التعبيرية إلى قواعد معرفية نبعت من السليقة والفطنة كي ((تضيء لهم الطريق وتفتح أمامهم سبل القول)) (مطلوب و البصير، ١٩٩٩، صفحة ٨) بعد أن تحوّل من معرفة فطرية إلى النسج على منوالها ، وتكرار الشعراء لهذه السنن الشعرية التي تجسّد الملكة التعبيرية وحسن الأداء .

إنّ نشأة الظواهر البلاغية قبل الإسلام أرتبطت بالوظيفة التواصلية للغة ((فالمتكلّم من العرب حين كانت ملكة اللغة العربية موجودة فيهم ، يسمع كلام أهل جيله ، وأساليبهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم ... ثم لايزال سماعهم يتجدّد ... إلى أن يصير ملكة وصفة راسخة)) (ابن خلدون، ٢٠٠٤، صفحة ٣٧٨/٢) من هذه الملكة التعبيرية نشأت وتبلورت الملكة البلاغية من الملكة اللغوية وهذا ما عبّر عنه ابن خلدون(ت ٨٠٨هـ) بقوله : ((اعلم أنّ اللغات كلّها ملكات شبيهة بالصناعة ، إذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني ، وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها ، وليس ذلك بالنظر إلى الألفاظ المفردة ، وإنّما هو بالنظر إلى التراكيب ، فإذا حصلت الملكة التامّة في تركيب الألفاظ المفردة ، للتعبير عن المعاني المقصودة ، ومراعاة التأليف الذي يطبّق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذٍ الغاية من إفادة مقصوده للسامع ، وهذا هو معنى البلاغة)) (ابن خلدون، ٢٠٠٤، صفحة ٣٧٨/٢) فمن الملكة التامّة ينبثق التعبير عن المقصود المطابق لمقتضى الحال ، ومنه تتحوّل الملكة التامّة إلى صفة راسخة ينتج عنها الطبع السليم الذي هو ((استكمالٌ للنفس في فهم أسرار الكلام ، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام الشعري أن ينحو نحوها ، فإذا أحاطت بذلك علماً قويت على صوغ الكلام بحسبه عملاً)) (القرطاجني، ٢٠١٤، صفحة ١٩٩)، فمن الملكة التامّة التي تؤدي إلى الطبع السليم ، تشكّلت الظواهر البلاغية وحسن القول عند العرب قبل الإسلام ، لتتحوّل إلى أنساق معرفية يتبعها الشعراء الفحول والخطباء المفوّهين ، ولا شيء أدلَّ على ذلك من حادثة النعمان بن المنذر وضمرة بن ضمرة التميمي : ((قيل إنّ رجلًا من بني تميم يقال له ضمرة بن ضمرة، كان يغير على مسالح النعمان بن المنذر، حتى إذا عيل صبر النعمان، كتب إليه أن ادخل في طاعتي، ولك مئة من الإبل؛ فقبلها وأتاه؛ فلما نظر إليه ازدراه – وكان ضمرة دميمًا -فقال :" تسمع بالمعيدي لا أن تراه "، فقال ضمرة :مهلًا أيّها الملك. إنّ الرجال لا يكالون

بالصيـعان . وإنّما المرء بأصغريه قلبه ولسانه. إن قاتل بجنان. وإن نطق نطق ببيان...)) (الأبشيهي، ١٩٥٢، الصفحات ٤٦-٤٧) فكلّ هذا يرسّخ ما وصل إليه العرب قبل الإسلام من كفاءة تعبيرية كوّنت أولى أنساق البلاغة العربية قبل إحاطتها بالعلم الواصف .

وممّا تجدرُ الإشارة إليه انتقال هذه الظواهر البلاغية لمرحلة تشكيل النقد البلاغي ، فكان الشعر العربي أوّل موئلٍ للبـلاغة وراعٍ لها ، ومقيماً عليـها ، لأنّ الشعر كمـا قال ابن سلّام الجمحي (ت ٢٣١هـ) : ((وكان الشعر في الجاهلية ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون وإليه يَصِيرون)) (الجمحي، ١٩٧٤، صفحة ٣٤)(الجمحي ، لا توجد ، صفحة ٣٤) لهذا اهتمّ العرب بالشعر ((فمن الطبيعي أن يحتلّ تلك المكانة ، وأن يعلّقوا به جملة من الوظائف ... فقد كان وسيلتهم التي قيدوا بها مآثرهم ، وصوّروا حياتهم وما جدَّ فيها من أحداث جسام)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٢٤) فكان الشعر ديوانهم ومصدر علمهم ومنجم أخبارهم وأيامهم ، ولأنّ الشعر وعلاقته المتلازمة للعربي ، جعل العرب يدركون جوهر وكنه البلاغة ((باعتبارها ملكة فطرية عمودها التواصل وبلوغ الكفاية في القول ،والشعر أحد مسالك التعبير التي اتضحت فيها هذه البلاغة ، وقد أكسب لهذه البلاغة العديد من الخصائص ستظهر في العصور اللاحقة))((بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ١٧) هذه الملكة الراسخة التي تبلورت ونضجت لم تكن مجرد زينة قولية ، أو بهرجة لفظية بقدر ما حملت من وظيفة إبلاغية تواصلية للفعل الكلامي التداولي لأنّ البلاغة أصبحت ((نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية ، تصلح لإحداث التأثير المناسب في موقف محدد)) (فضل، ١٩٩٢، صفحة ٩٧)، وهذا يعود إلى اكتمال خصائصها وما تحمله من أهداف امتاعية إقناعية.

لقد تعاضدت البلاغة والنقد في هذا العصر لتكوّن ثنائية في إنتاج الخطاب الفعال المؤثر ، فالبلاغة والنقد في توصيف محمد مشبال ((هناك تفرقة شائعة بين هذين العلمين داخل الحقل الأدبي ، حيث يفهم من البلاغة عادة تلك المعرفة التي تختصُّ بدرس خصوصية الاستخدام الفنّي للغة في مستوياتها الصوتية والتركيبية والدلالية ، بينما ينصرف مفهوم النقد إلى الدلالة الشاملة للتحليل الأدبي الذي لا ينحصر في معاينة الخصوصية الأدبية ، بل قد يستوعب مجموع الأبعاد التي يتشكل منها كيان العمل الأدبي ، على هذا النحو تمثّل البلاغة جزءاً من الأراضي الواسعة للنقد الأدبي)) (العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ٢٠١٣، صفحة ٢٢٧)

إنّ هذا التعاضد الثنائي تمثّل بدءاً في الشاعر الجاهلي الذي كان هو أول صانع ومنتج للخطاب ، وبذات الوقت كان هو أوّل ناقد لنتاجه ، لما احتوت عليه معرفته من قواعد متعارفة راسخة في انتاج القول الفعّال المؤثر ، فلقد وضعت مصطلحات نقدية بلاغية حول بعض الظواهر التي تخلّ بالبناء الجمالي للشعر ، وكذلك الانسجام الصوتي والارباك في التناسب الموسيقي ، إضافة إلى الخلل المعرفي بعدم انسجام الرسالة الإبلاغية من حيث

المعاضلة اللفظية أو تراكب المعنى وعدم وضوحه ،كلّ ذلك جعل متلقي الشعر في العصر الجاهلي على مستوىً عالٍ من الذائقة في تحديد مواطن الإجادة والخلل فأصبح ((لدى متلقي الشعر _قبل عصر التأليف _ تصوّر لما ينبغي أن يكون عليه الشعر ، وهو ما يدعى في جمالية التلقي وأفق التوقع . فبرغم كون الشاعر هو أوّل ناقد لشعره ، فإنّ خروج الشعر إلى مجال التداول يثير ردود فعل القرّاء بالنظر إلى ما ألفوه أو صاروا يتوقعونه نتيجة عوامل أصيلة أو طارئة ناتجة عن المثاقفة .)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٥٨)

فقد تنبّه الشعراء في أوليات الشعر وفي مراحل الهيكلية الأولى إلى الخلل الذي يصيب بنية الشعر الجمالية والتداولية في عدم اكتماله واستوائه وانتظامه ، بما أطلقو عليه الشعر ((المخشوب والمأشوب)) ويلخّص المصطلحان عدم صقل البيت ونقائه ، وانعدام الجودة وحسن الصياغة الفنية في البيت الشعري واستمر هذا الاصطلاح حتى العصر الأموي ، وفي هذا يقول النابغة الشيباني : (الشيباني، ٢٠٠٠، صفحة ٧٥) [البسيط – ق– المتدارك]

وإنْ رحلتَ إلى ملكٍ لتمدحه فارحلْ بشعرٍ نقيٍّ غيرِ مخشوبِ

وقال عامر بن جوين الطائي في رصده لهذا الخلل الشعري والذي يعرف بالمأشوب (الجبوري، ٢٠٠٢، صفحة ٥٨): [المديد –ق– المتراكب]

وَبَنو جَـــرمٍ وَإن زَعَمــوا أَنَّ شِعـــــري كانَ مؤتَشِبا

إِنَّني غَيــرَ الَّــذي زَعَمــوا واسِـــــطٌ في طَــيءٍ نَسَبــا

كذلك تنبه الشعراءُ ومتلقو الشعرِ إلى الخلل الفني المطرد في الشعر والذي يكون في الأوزان والقوافي مما يخلُّ في التناسب الصوتي والموسيقي ((حيث كانت المرحلة الجاهلية التي وصلنا شعرها مرحلة النضج والكمال الموسيقي ، إذ صـار المستمع يلحظ بأذنه أيّ خللٍ يقع في القصيدة)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٥٨) ومثال هذا ((انتباه أهل المدينة إلى وجود عيب موسيقي في شعر النابغة واحتيالهم عليه بالغناء فانتبه)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٥٩) وهذا العيب بات يعرف بـ ((الإقواء)) وغيره من عيوب القافية فللنابغة الذبياني أكثر من بيت شعرٍ تجلّى فيه هذا الخلل الموسيقي وقد تنبّه الشاعر له كما ورد في كتاب الموشح للمزرباني يقول النابغة : (المزرباني، ١٩٩٥، صفحة ٧٥)[الكامل –ق– المتدارك]

أَمِن آلِ مَيَّــةَ رائِحٌ أَو مُغتَدِ عَجــلانَ ذا زادٍ وَغَيرَ مُزَوَّدِ

زَعَمَ البَوارِحُ أَنَّ رِحلَتَنـا غَداً وَبِذاكَ خَبَّـرَنا الغُدافُ الأَسوَدُ

وقوله في نفس القصيدة :

سَقَطَ النَصيفُ وَلَم تُرِد إِسقاطَهُ فَتَنـــــاوَلَتهُ وَاِتَّقَتنا بِاليــدِ

بِمُخَضَّبٍ رَخصٍ كـأَنَّ بَنانَــهُ عَنمٌ يَكــادُ مِنَ اللَطــافَةِ يُعقَدُ

لقد ارتقت الذائقة ((النقد بلاغية)) فأصبحت تشمل كل عناصر القول الأدبي ، وتحيط كلّ عناصر الفعل الكلامي من مرسل ورسالة ومرسل إليه كخطاب تداولي فعّال ومؤثر ، لأنّ التداولية تهتم ((بالعلاقة بين بنية النصّ وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة به بشكل منظم)) (فضل، ١٩٩٢، صفحة ٢٦) فنجد أن المتلقي يرصد أيّ خللٍ معرفي في القول من خلال ملكته الفطرية الراسخة ، وهذا ما تنبّه له طرفة بن العبد وهو صبيٌّ يافع عندما أخطأ خالُه الشاعر المتلمّس في إيراد المعنى الصحيح في قوله :[الطويل–ق– المتدارك]

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضارهِ بناجٍ عليه الصيعريَّةُ مُكْدِمِ

والصيعريّة سمة للنوق لا للفحول ،فجعلها لفحلٍ . وسمعة طرفة وهو صبيٌّ ينشدُ هذا ، فقال : ((اِستنوقَ الجملَ)) ! فضحك الناسُ ، وسارت مثلاً . وأتاه المتلمس فقال له : إخرج لسانك ، فأخرجه ، فقال : ويلٌ لهذا من هذا يريد : ويل لرأسه من لسانه .)) (ابن قتيبة، ١٩٨٢، صفحة ١٨٣/١) إنّ ما رصده طرفة خلال تلقيه بيت خاله المتلمّس ، وما فيه من معاضلة لفظية يعكس مدى استكمال الملكة البلاغية والذائقة النقدية لدى المتلقي الذي يتلمس بطبعه السليم مواطن الخلل القولي وإخفاقه في الكفـاءة التعبيرية .

لذا نرصد الكثير من المواقف النقدية المتحصّنة بالملكة البلاغية التي ترصد الملمح البلاغي في الخطاب فعندما يسأل أوليفيي روبول عن ما هو الملمح البلاغي في الخطاب يقول : ((جوابي هو الآتي : البلاغيُّ ، في أيّ خطابٍ ، هو ما يجعله مقنعاً باتحاد المضمون والشكل ، أقصد بالمضمون المحتوى الإخباري ، والبنية المنطقية للخطــاب ، وبالشكل كلّ ما ينبع من الوجدان (الإثارة والتهييج) ، كما أقصد البنـاء (التنظيم : disposition) والأسلوب ، ثمّ الأداء في آخر المطاف)) (العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ٢٠٠٥، صفحة ٢١٨)

يحيلنا هذا القول إلى محاولات التقويم والتفسير التي كان يتصدى لها الشعراء فيما بينهم في عصر ما قبل الإسلام عندما يعرض بعض الشعراء قصائدهم على غيرهم من الشعراء الفحول ، ومن أبرز من يعرضون عليه شعرهم الشاعر الفحل النابغة الذبياني في خيمته التي كانت تضرب له في سوق عكاظ ((ويبدو أن من الشعراء النابهين من كان يقوم في هذه السوق مقام القاضي الذي لا تدفع حكومته ،ففي أخبار النابغة الذبياني أنّ الشعراء الناشئين كانوا يحتكمون فيها إليه ، فمن نوّه به طارت شهرته في الآفاق . وكان في أثناء ذلك يبدي بعض الملاحظات على معاني الشعراء وأساليبهم ، ويقال أنّه فضل الأعشى على حسان بن ثابت ، وفضّل الخنساء على بنات جنسها . وثار حسان عليه ، وقال له : أنا والله أشعر منك ومنها)) (ضيف، ١٩٩٠، صفحة ١١) لقد عكس هذا الموقف النقدي من النابغة عن حصيلة الوعي المعرفي في تقويم وتقييم القول الأدبي وفق أسس وقواعد تعارفوا عليها وأصبحت معايير للتفاضل بين الشعراء .

إن الاطلاع على هذه الممارسات النقدية انطلاقاً من المعرفة البلاغية يحيلنا أيضاً إلى اتجاهين متوازيين في النظر إلى مصدر الأقاويل الشعرية المغايرة للغة الطبيعية المألوفة ((باعتبارها صيغاً يبتعد فيها القول بدرجاتٍ متفاوتة في مسافتها قرباً وبعداً عمّا يمكن أن تكونَ عليه العبارة البسيطة الشائعة)) (فضل، ١٩٩٢، صفحة ١٩٨) فهذه الخصيصة المفارقة للغة الشعرية بما فيها من ملامح لغوية متشابكة فيما بينها ، وذات علاقات على درجة عالية من التراتب والتعالق ، بما تحتويه من طابع إيقاعي وصوتي ، وطابع مرتبط بالأبنية الدلالية والمجازية ذات سمات انحرافية أو تكرارية (فضل، ١٩٩٢، صفحة ١٧٣) ، هذه اللغة الخارقة المنتهكة للسياق اللغوي المالوف والمفارقة له جعل الاتجاه الأوّل ينظر إلى القوى الإلهامية الغيبية ، وبين الاتجاه الثاني الذي عدّ الأقاويل الشعر جهد لغوي وصناعة ((تجعله نتاج كفاءةٍ وجهد ومعاناة)) فهذان الاتجاهان اقتربا في مصدر ومرجعية الأقاويل الشعرية من فلسفة أفلاطون وأرسطو في مصدر هذا الفن المغاير للمألوف ،ومرجع ذلك ليس التأثر والاتباع بل يؤكد على توافقية الرؤية البشرية للوجود وتفسيراته وفهم الظواهر ، فأفلاطون يتوافق مع الاتجاه الأوّل الذي يعتقد بأنّ مصدر الشعر هو القوى الإلهامية الغيبية .

ويقدّم أفلاطون ((الطريقة التي يدرك بها الأدباء والفنانون أمثال تلك الحقائق . فهم لا يعتمدون على الطريقة البطيئة الواثقة ، بل على نشوة الوحي والإلهام . فالله أو ربة الشعر تلهم الشاعر ... فالشعراء كالنافورة تقذف بما قد صبَّ فيها من ماءٍ دون حساب)) فيقول في كتابه ((إيون)) : ((فكلّ الشعراء المجيدين ، شعراء الملاحم وشعراء الغناء على السواء ، يؤلفون شعرهم الجميل لا عن فنٍ أو حذق ولكن لأنّه يوحى إليهم)) (ماضي، ٢٠١٣، صفحة ٢٤).

لقد نظر الشعراء إلى هذه القوّة الخارقة المغايرة للمألوف ، وبما فيها نصاعة جمالية وجزالة لفظية التي تشكّل الفعل الشعري فلم يجدوا تفسيراً سوى بربطه بالعوالم الغيبية ((لقد كان الشعر غريباً في مواتاته وتمنّعه ، كما هو غريب في أثره الذي لم يجدوا له تفسيراً . وربّما قوّى بعض الشعراء الهجائيين هذا الميل إلى ربط الشعر بعالم الجنِّ والشياطين)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٥٠) لهذا قد عبّر الكثير من الشعراء عن المصدر الغيبي للشعر وكانت هناك أسماء لشياطين الشعراء مثل (لافظ بن لاحظ) شيطان امرئ القيس والذي أورد قصّته مع الإعرابي أبي زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب ((قلت : أتروي شيئاً من أشعار العرب .فقال : نعم .فأنشدني كالمستهزئ به ، ... قول امرئ القيس :

[الطويل –ق– المتدارك]

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فلما فرغ قلت له لو أنّ امرأ القيس يُنْشَر لردعك عن هذا الكلام ... قال : لست أوّل من كفر نعمة أسداها !. قلت : ألا تستحي أيّها الشيخ ، ألمثل امرئ القيس يقال هذا ؟ . قال : أنا والله منحته ما أعجبك منه ! قلت :فما اسمك ؟ قال : لافظ بن لاحظ ...فأنشأ يقول : [الكامل –ق– المتواتر]

ذهبَ ابنُ حُجرٍ بالقريضِ وقولـه ولقد أجـــاد فما يعـاب زيادُ

للهِ هـــادرُ إذ يجـودُ بقولـه إنّ ابن ماهرَ بعـــده لجوادُ))

(القرشي، دون تاريخ، صفحة ٥١)

والشواهد على هذا الاتجاه الإلهامي كثيرة حتى خصص لها فصل في كتاب (جمهرة أشعار العرب) وتناقلتها بعض كتب الأدب .

إنّ الاتجاه الإلهامي مهما بلغ شأوه في تعزيز مفاهيمه حول المصدر المرجعي للشعر ((لم يلغِ –حتّى في المراحل الأولى – الوعي بأنّ الشعر صناعة ناتجة عن جهد فرديٍّ ومعاناة مع اللغة)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٥٢) هذا الجهد الإبداعي ترسّخ بأجلى صوره في تيار أسس لمدرسة شعرية لها خصائصها وقواعدها العملية هي مدرسة الصناعة والرواية ، وكان لها اتباع وشيوع لمبادئها المدرسية الراسخة ، وهي بذات الوقت ((مدرسة لم تكن تمضي في نظم الشعر على عفو الخاطر ، بل كانت تتأنّى فيما تنظم منه ، وتنظر فيه وتعيد النظر مهذّبة ومنقّحة)) (ضيف، ١٩٩٠، صفحة ١٢) وعلى رأس هذه المدرسة زهير بن أبي

سُلمى ((وهي مدرسة كانت تجمع إلى الشعر روايته ، وتبدأ بأوس بن حجر التميمي الذي تلقّن عنه الشعر زهير المُزني ، ولقّنه بدوره لابنه كعب وللحطيئة ، ولقّنه الحطيئة هدبة بن الخشرم العذري ...)) (ضيف، ١٩٩٠، صفحة ١٢) وعن هذه المدرسة يقول الأصمعي عبد الملك بن قريب (ت ٢٠١٦هـ) : ((زهير بن أبي سُلمى والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر)) (الجاحظ، ١٩٩٨، صفحة ١٣/٢) .

لقد وصف الأصمعي قطبا هذه المدرسة من حيث شدّة تجويدهما للشعر ومراجعته وتنقيحه ، والسهر على تشذيبه ؛ ليظهر بأبهى حلّة وأجزل لفظ وأشرف معنىً وألطف سبك ونسج ، وهذا ما حدّده الحطيئة (ت٥٩هـ) في تقييمه لجودة الشعر بقوله : ((خيرُ الشعرِ الحوليُّ المحكك)) (الجاحظ، ١٩٩٨، صفحة ١٣/٢) ،وهنا يتجلى مذهب هذه المدرسة في صناعة الجودة الشعرية التي رسخت الخصائص البلاغية والجمالية للأقاويل الشعرية ((هي جودة كانت تقوم على التصفية والترويق ، فالشاعر من أمثال زهير والحطيئة حين ينظم قصيدة يظلّ يتأمّل أعطافها ، فيحذف –أو يزيد– بيتاً ، ويصلح عبارة هنا أو هناك ، ويصفّي الأبيات من شوائبها ، ويخلّص القوافي من أدرانها تخليصاً تامّاً)) (ضيف، ١٩٩٠، صفحة ١٢) وهذه الجودة في مدرسة الصناعة والرواية وما تنتهجه من منهج إبداعي ، قد رفد البلاغة بدفقات معطاء من نماذج شعرية رسمت حدود مملكتها ، وأصّلت أشكالها القولية والدلالية المفارقة للمألوف ، ولعلّ ما دار من حوارٍ بين الحطيئة وكعب بن زهير يؤكّد التزام هذه المدرسة بجودة القول المعجب الفعّال والمؤثر ((كان الحطيئة راوية لزهير وآل زهير ، ويروى أنّه أتى كعباً فقال له : قد علمت روايتي لكم أهل البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرك ، فلو قلت شعراً تذكر فيه نفسك ، وتضعني موضعاً بعدك ... فإنّ النـاس لأشعـاركم أروى وإليها أسرع ، فقال كعب : (الأصفهاني، ٢٠٠٨، صفحة ١٠٧/٢) [الطويل –ق– المتدارك]

فَمَن لِلقَــوافي شانَها مَن يَحوكُهـا إِذا ما ثَوى كَعـبٌ وَفَوَّزَ جَـرولُ

يَقولُ فَلا يَعيـــــا بِشَيءٍ يَقولُهُ وَمِن قائِليـــها مَن يُسيءُ وَيَعمَلُ

يُقَـوِّمُها حَتّـى تَقـومَ مُتـونُها فَيَقصُـرُ عَنـها كُلُّ ما يُتَمَثَّـــلُ

لقد تماهت هذه المدرسة الشعرية مع آراء أرسطو الفلسفية في تنظيره البلاغي للشعر ، فهو يرى أنّ فنَّ الشعر صناعة ومهارة وجهد نابع من الطبيعة البشرية ، فلقد ((ربط أفلاطون الشعر بقوى خارجة عن طبيعة الإنسان ... وقد رفض أرسطو هذا المنطق تماماً وقال بأنّ الدافع إلى قول الشعر مرتبط بالطبيعة الإنسانية ، فما يولّد الشعر إنّما هو غريزة المحاكاة وغريزة حبِّ الوزن والإيقاع ، فالمحاكاة غريزة إنسانية ...وبهذا التفسير خطا أرسطو بفلسفة الأدب والفنّ خطوة واسعة جدّاً ، إذ ربط بين الشعر والطبيعـة الإنسانية برباط وثيق ، أي اعتبر الشعر ظاهرة

إنسانية)) (ماضي، ٢٠١٣، الصفحات ٣٣-٣٤) فالشاعر هو صانع إبداعه القولي ولا علاقة لقوى غيبية إلهامية بهذا النتاج الإنساني الخلّاق ، وربط الشعر بغريزة المحاكاة .

ولا يفوتنا التنويه على مسألة مهمة في تعاضد البلاغة و النقد في العصر الجاهلي وتداخل أراضيهما ، أنّ هذين الاتجاهين في مرجعية الشعر ومصدره ، هناك يلتمع لنا طرف مقابل للاتجاه الثاني وهو تيار الشعراء المطبوعين الذين أشاد بنتاجهم الشعري الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) عندما ذكر مدرسة الشاعر زهير ومذهبه في تجويد وتنقيح الشعر فيقول : ((ولولا أنّ الشعرَ كان استعبدهم ... لذهبوا مذهب المطبوعين ، الذين تأتيهم المعاني سهواً ورهواً ،وتنثال عليهم الألفاظ انثيالاً ، وإنّما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ورؤبة)) (الجاحظ، ١٩٩٨، صفحة ١٣/٢).

لقد شكّل المهاد المعرفي _ في العصر الجاهلي _ بما فيه من صور بلاغية متكاملة ، وأنساق قولية متماسكة ، وسنن تعبيرية راسخة ، الأساس المعرفي لتأسيس مشاريع العلم الواصف في القرون التالية ، وانبثاق امتدادات العلم الواصف لهذه الظواهر البلاغية بالاستناد إلى هذه القواعد البلاغية للأقاويل الشعرية التخييلية ، والأقاويل الخطابية الإقناعية ، لأنّ علماء البلاغة فيما تلا هذا العصر قد بنوا قوانينهم البلاغية وفقاً لما جاءهم من هذا العصر الزاخر بالغنى الأدبي وما ينطبق عليه من مصطلح علوم الأوائل .

المبحث الثاني : البلاغةُ العربية من الملكة الفطرية إلى العلم الواصف حتّى القرن الخامس الهجري ((الأصول والمشاريع الكبرى)) :

لقد نوّهنا فيما سبق على أوليات التشكّل المعرفي للظواهر والصور والأشكال البلاغية ، والملكة الفطرية التي انتجت هذا الوعي البلاغي الجمالي بطاقات اللغة ، وتحوّلها من درجاتها الصفرية في التعبير عن اليومي المألوف إلى الانزياح والعدول والنقل الدلالي من منطقة الحقيقة إلى عوالم المجاز الساحرة الأخّاذة ، وتجليات انزياحات اللغة المعجمية المتداولة من بنيتها السطحية إلى بنية العمق التي تعيد تشكيل اللغة وانتهاك نظامها الصارم كما يحدد ذلك بول ريكور بقوله : ((إنّ مفهوم الانزياح ، كما تمّ تحديده إلى الآن ، أي باعتباره خرقاً منتظماً لِسَنَن اللغة ، ليس في الحقيقة إلا ظهر عملية أخرى ، لايقوم الشعر بتقويضِ اللغة العادية إلّا لأجلِ إعادة بنائها على مستوىً أعلى ، يعقبُ تفكيك البنية الذي يحدثه المُحَسِّن إعادة بنية من نمطٍ آخر)) (ريكور، ٢٠١٦، صفحة ٢٥٤).

من هذا التقويض للغة نشأت في العصر الجاهلي الظواهر البلاغية كملكة فطرية معرفية ، لتنتقل في أوليات القرن الهجري الثاني إلى أولى تشكّلات العلم الواصف ، بعد أن اكتسبت البلاغة العربية في العصر الأموي مؤهلات

جديدة ((وكذلك توسّعت طاقات اللغة العربية جرّاء الحوادث الطارئة ... والصراعات السياسية التي برزت في العصر الأموي كانت السبب الرئيس في بروز الخطابة كفنٍ للتوجيه والإقناع)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ٢٨) وتتهيأ الأرضية العلمية للأنطلاق بأسئلة البلاغة في الأصول والمشاريع الكبرى ، ولعل من أهم أسئلة البلاغة تمحورت حول سؤال الإعجاز القرآني والمزيّة في هذا الإعجاز ، وسؤال القياس والتوسّع في اللغة والنحو ، مع أسئلة البيان والفصاحة ومحاسن الكلام وبديعها .

فمن هذه الأسئلة الكبرى بدأت تتشكل مسارات العلم البلاغي الواصف في منتصف القرن الثاني بوضوح ، وإن تعددت هذه الروافد فكانت كلها تصبُّ في بحر البلاغة الواسع الذي لا تدرك أعماقه باستنفاد الأعمار على حدّ تعبير حازم القرطاجنّي (ت ٦٨٤هـ) ولاشيء أبلغ من توصيف البلاغة عند ابن المقفع (ت ١٤٢هـ) فيقول : ((البلاغة اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة ، فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها مايكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها مايكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً وخطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامّة ما يكون في هذه الأبواب الوحيُ فيها والإشارة إلى المعنى ، والإيجاز هو البلاغة .)) (الجاحظ، ١٩٩٨، صفحة ١١٥/١) من هذا الوعي الكلّي العميق ، الذي أحاط بجوهر البلاغة وامتداداتها انبثقت المسارات الأولى للعلم الواصف ، ونشأ عنها الامتداد في المشاريع البلاغية الكبرى ،والتي سنتناول بعضها لأهميته البالغة ، وذلك لأن التمهيد لايسع لعرضها جميعاً .

أولاً : البلاغة وتقعيد اللغة :

شهدت الفترة الممتدّة بين منتصف القرن الأوّل إلى منتصف القرن الثاني الهجريين نشاطاً حثيثاً في جمع اللغة والبحث عن معيارها التقعيدي ((معيار يستوعب الشتات اللهجي والتنوّع النصي ...كان مشروع الوحدة قيمة مهيمنة والوحدة تقتضي كشف نسق تجريدي أو بناءَهُ من المعطيات المتوفرة المناسبة ...وكانت الآلية والكلمة السحرية هي القياس والشائع أو القياس على الشائع)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٨٩) لأنّ جهود اللغويين والنحاة كانت تهدف لإيجاد النسق الذي ينتظم به الكلام العربي ، وهو ما قصده ابن السرّاج في كلامه عن وظيفة علم النحو بقوله : ((هو علمٌ استخرجه المتقدّمون فيه من استقراء كلام العرب ، حتّى وقفوا منه على الغرض الذي قصده المبتدئون بهذه اللغة .

فباستقراء كلام العرب علم أنّ الفاعل رفع ، والمفعول به نصب ...)) (ابن السراج، ١٩٩٦، صفحة ٣٥/١) هذا الاستقراء جعل النحاة يواجهون بالمقابل من المعيار والقاعدة مايخرج عنها، وينتهك قواعدها الصارمة، وجاء هذا الانتهاك والخروج عن المعيار في الشعر العربي ممّا حدا بسيبويه أن يخصّص في الكتاب باب ما يحتمل الشعر؛

فيمنح الشعر خصوصية وفرادة عن غيره من كلام العرب ((واعلم أنّه يجوز في الشعر ما لا يجوز في الكلام)) (سيبويه، ١٩٨٨، صفحة ٢٦/١).

إنّ هذا التجوّز قاد سيبويه إلى مفهوم التوسّع والاضطرار ، وهذا المفهوم إدخله إلى منطقة البلاغة فعندما ((نتأمّل مفهوم ما يحتمله الشعر عند سيبويه نجده جزءاً من بناء النحو يلامس كلّ ما يتعلق بالبناء تركيباً ودلالة. يمتدُّ من التصرّف في الكلمة بحذف جزءٍ منها ، إلى تقعيد العلاقات الدلالية بالتقديم والتأخير والإبدال ... يتمُّ ذلك كلّه ضمن مفهوم التوسّع في اللغة ، ممّا يقتضيه الإنجاز ويسيغه الحمل والإلحاق)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ١٢٠) إنّ هذا التوسع الذي يخرق القاعدة النحوية جعل النحو يدخل إلى منطقة البلاغة ((إذ نجد علماء النحو أرجعوا كلّ ما لا يتوافق مع القوانين النحوية المستنبطة من استقراء كلام العرب إلى أمرين هما : التوسّع والضرورة ، وما سمّي عند البعض الآخر بالمجاز)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ٣٣) وهذا ما دفع أبو عبيدة معمّر بن المثنى (ت ٢٠٩هـ) إلى تأليف مجاز القرآن والقصّة يرويها أبو عبيدة فيقول : ((أرسل إليّ الفضل بن الربيع إلى البصرة في الخروج إليه سنة ١٨٨هـ ، فقدمت إلى بغداد واستأذنت عليه فأذن لي. ثمّ دخل رجل في زي الكتّاب له هيئة فأجلسه إلى جانبي .. وقال لي : إني كنت إليك مشتاقاً، وقد سألت عن مسألة ، أفتأذن لي أن أعرفك إياها ؟ فقلت : هاتِ. قال : قال الله عز وجل : ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾ وإنّما يقع الوعد والإيعاد بما عرف مثله وهذا لم يعرف . فقلت: إنّما كلّم الله العرب على قدر كلامهم ، أما سمعت قول امرئ القيس : [الطويل –ق– المتواتر]

أيقتلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ

وهم لم يروا الغول قطُّ ، ولكنّهم لمّا كان أمر الغول يهوّلهم أوعدوا به ، فاستحسن الفضل ذلك واستحسنه السائل ، وعزمت من ذلك أن أضع كتاباً في القرآن ... فلمّا رجعت إلى البصرة عملت كتابي الذي سمّيته المجاز)) (ابن خلكان، ١٩٧٨، صفحة ٢٣٦/٥)،وهذا الحدث سيشكّل فيما بعد مسار بلاغة النصّ المقدّس التي بحثت في تبرير المجاز وبيان وجوه الإعجاز القرآني والبحث عن المزيّة ، ومن أبرز أعلام من بحثوا في هذا المجال الرمّاني (ت ٣٨٦هـ) والخطّابي (ت ٣٨٨هـ) والباقلّاني (ت ٤٠٣هـ) .

إنّ جهود علماء اللغة والنحاة في جمع اللغة ومعيرتها كانت ذات ((أهمّية خاصة لما ألمَّ بها من ظروف ساعدت على ربط الصلة بين العمل النحوي والتفكير البلاغي ، واضطُّرت اللغويين إلى التعرّض إلى جملة من المسائل أُلحقت في وقت متأخّر بالبلاغة بينما كانت في مؤلفاتهم شديدة الصلة بالنحو ممتزجة به)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٤٦)، فكانت أولى مراحل التفكير البلاغي في أرض النحو العربيّ هي ((التفسير البلاغي للظواهر النحوية

إنّما هو استدعاء منهجي من النحو للرؤية البلاغية ؛ لأنّ الرؤية المغلقة على النحو الصوري لا تفي بحاجة البحث في المعنى بمستويي تحليل الظواهر)) (بلبع، ٢٠١٨، صفحة ١٥٩).

وهذا ما طرحه النحاة من فكرة القياس والتي تناقض قواعدهم النحوية المعيارية ، و منح النصّ القرآني والشعر العربي أهمّية خاصّة عند اللغويين والنحاة واعتبروه مصدراً لغوياً هامّاً من حيث الاستشهاد ((ولا شكَّ أنّ إدراجهم القرآن والشعر في عداد المصادر اللغوية قد نبّههم إلى بعض خصائصها النوعية ، ودفعهم في نطاق مشاغلهم النحوية ، إلى جملة من الملاحظات البلاغية المفيدة خاصّة أنّهما يخرجان من معهود الكلام ويستعملان اللغة استعمالاً خاصاً لمقاصد فنّية واضحة)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٤٧) لقد قاد هذا التفكير النحوي إلى تأسيس علم بلاغي فيما بعد ألا وهو ((علم المعاني))، وجعل النحاة يحددون مناطق الحقيقة والمجاز وتداخل النحوي والبلاغي فيهما ، ومن أبرزهم ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) في كتابه الخصائص الذي حفر حفراً معرفيّاً عميقاً في حدّي الحقيقة والمجاز ووضع ((جملة من الملاحظات على غاية في الأهمية ،سواءٌ تعلّق الأمر بالتعريفات أو المصطلحات المستعملة أو بتحديد وظيفة كلٍّ منها)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٤٩) فكانت مصطلحاته وتحليلاته رافداً للدرس البلاغي لمن جاء بعده ، فنجد العمق وسعة الإدراك في تحديد منطقة الحقيقة والمجاز في تعريفهما ، فيقول في باب في الفرق بين الحقيقة والمجاز :((الحقيقة : ما أقرّ في الاستعمال على أصل وضعه في اللغة ، والمجاز : ما كان بضدّ ذلك . وإنّما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاثة وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه ، فإن عُدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة إلبتّة)) (ابن جني، دون تاريخ، صفحة ٤٤٢)من هذا التعريف التقعيدي العميق نتلمس التفكير البلاغي العميق عند ابن جنّي ولا يسع المقام لشرحه وتفصيله ، فلقد ذهب ابن جني إلى أبعد من ذلك عندما استنتج مسلمة مفادها فيما يلي هذا التعريف بصفحات فيقول : ((اعلم أنّ أكثر اللغة مع تأمّله مجازٌ لا حقيقة ، وذلك عامّة الأفعال ، نحو قام زيدٌ ، وقعد عمرو... وجاء الصيفُ وانهزم الشتاءُ ، ألا ترى أن الفعل يفاد منه معنى الجنسية ، فقولك : قام زيدٌ ، معناه : كان منه القيام أي هذا الجنس من الفعل ، ومعلوم أنّه لم يكن منه جميع القيام)) (ابن جني، دون تاريخ، الصفحات ٤٤٧-٤٤٨) هكذا يتجلّى الوعي الثر لابن جني في حفره المعرفي العميق لجوهر اللغة والذي عدّ المجاز ليس خروجاً عن القاعدة أو شذوذاً ، بل اعتبره بمصطلح لم يسبقه إليه أحد من علماء النحو ألا وهو ((شجاعة اللغة العربية)) فيقول: ((ومن المجاز كثيرٌ من باب الشجاعة في اللغة : من الحذوف ، والزيادات ، والتقديم ، والتأخير : والحمل على المعنى ، والتحريف)) (ابن جني، دون تاريخ، صفحة ٤٤٦) ليكون ابن جنّي في توسّعه قد منح البلاغة مساحة واسعة في أرض النحو ، وتحديد ملامح العلم الواصف من حيث أن تمام النحو ومنتهاه يصلّ إلى مساحة علم المعاني والبيان فيما بعد في الدرس البلاغي المتأخّر .

لقد أسمهت جهود النحاة في إغناء الدرس البلاغي وشاركت في بلورة المسائل البلاغية ، ولم يتوقفوا عند هذا الحدّ بل ((وقفوا على جملة من القوانين الهامة ، وعلّلوا الأمور بطريقة تدعوا إلى الإعجاب ... وعندهم نجد بذور ما يُسمّى اليوم بـ (علم المعاني السياقي) ... ولقد تبلور هذا عندهم خاصّة في اهتمامهم بعوارض الملفوظ وهيئاته كالحذف والإيجاز ، فكانوا أوّل من تفطّن إلى تعدّد عناصر الدلالة ونيابة بعضها عن بعض)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٥١) فكانت هذه الجهود لها الإسهام البالغ في إثراء الدرس البلاغي ، وتجليات تنظيراتهم وقواعدهم في كتب البلاغيين ، الذين اختصوا بهذا العلم الواصف من أبرزهم أبو هلال العسكري (ت ٣٩١هـ) وابن سنان الخفاجي (ت ٤٦٦هـ) وعبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) والسكّاكي (ت٦٢٦هـ) وحازم القرطاجنّي وغيرهم من علماء البلاغة اللاحقين .

ثانياً : بلاغةُ البيان (الوظيفة المعرفية والإقناعية) :

لسنا بصدد استقصاء وعرض الأرث المعرفي لبلاغة البيان الجاحظية ، بقدر ما نتغياه هو إضاءة أبرز جوانب هذا الحدث الجاحظي على حدّ تعبير حمّادي صمّود في أولى محاولات تأسيس البلاغة العربية كعلم انتاج الخطاب الاقناعي الفعّال والمؤثر ((ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا بعد ذلك كلّه أن الجاحظ يعدّ – غير منازع – مؤسس البلاغة العربية ، فقد أفرد لها لأول مرّة كتابه ((البيان والتبيين)) ونثر فيه كثيراً من ملاحظاته وملاحظات معاصريه... وهو حقّاً لم يكن يعنى بوضع ملاحظاته في شكل قوانين محددة بالتعريفات الدقيقة، ولكنّه صوّرها في أمثلة متعدّدة بحيث تمثّلها من خلفوه تمثّلاً واضحاً)) (ضيف، ١٩٩٠، صفحة ٥٨) فهنا قد أحدث الحدثُ الجاحظي نقلة معرفية في مسيرة البلاغة العربيّة فلقد قدّم الجاحظ في البيان والتبيين أولى النظريات البلاغية فعند ((تحليل استراتيجية كتاب البيان والتبيين تكشف بكلّ وضوح أنّ هذا الكتاب محاولة لوضع نظرية الإقناع ، مركزها الخطاب اللغوي الشفوي ، وهامشها كل الوسائل الإشارية والرمزية ، وأساس الإقناع الخطابي مراعاة أحوال المخاطبين)) (العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ٢٠٠٥، صفحة ١٢٥) إنها نظرية متكاملة تشتمل على كل عناصر الفعل الكلامي من المنشئ إلى الإنشاء وصولاً إلى المنشأ إليه وهذا ما حدّده كيبيدي فاركا من تعريف للبلاغة بأنها ((مجموعة من التقنيات التي تسمح بوصف وإعادة بناء إنتاج الخطابات والنصوص ، إنّها تمنح الأفضلية للتصوّر التواصلي للكلام . ولا يقوم تحليل بلاغي إلا بقبول النظر إلى أيّ نص باعتباره جزءاً من فعل التواصل بوساطة مُرْسِلٍ ومُرْسَلٍ إليه ورسالة)) (مشبال، ٢٠١٨، صفحة ٣٩)، وهي الآلة البلاغية الأرسطية والتي تعرف بالشجرة البلاغية في حدودها الثلاثة ((االأيتوس الخطيب / اللوغوس النص / الباتوس المُسْتَمع))فهنا يكمن جوهر البلاغة الكلّية المطلقة عند الجاحظ ، وإن لم يحددها بقوانين وقواعد ، بل قدّمها من خلال ما عرضه من أقوال وشواهد.

لقد كانت تعريفات الجاحظ للبيان كفيلة بتحديد الوظائف المضمرة لهذا الفعل الكلامي الفاعل ، وكذلك ما قدّمه من تعريفات البيان لغيره ، لكنّ ما يولى الاهتمام تقديم الجاحظ لنا أولى تعريفات البيان بقوله : ((البيان اسم جامع لكلّ شيءٍ كشف لك قناع المعنى ، وهتك الحجاب دون الضمير ، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله)) (الجاحظ، ١٩٩٨، صفحة ٧٦/١) فبهذا التعريف الجامع لجوهر البيان ينتقل الجاحظ إلى تحديد وظيفة البيان التداولية ((ومدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام)) (الجاحظ، ١٩٩٨، صفحة ١١٥/١) والتحديد الهام لوسائل الفهم والإفهام التواصلية ((وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظٍ وغير لفظ ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد : أولها اللفظ ، ثمّ الإشارة ، ثمّ العقد ، ثمّ الخطّ ، ثمّ الحال التي تسمّى النِصْبة)) (الجاحظ، ١٩٩٨، صفحة ١١٥/١) لقد قدّم الجاحظ مفهوم البلاغة الكلّية التي تشمل كل عناصر التواصل البشري وذلك لأنّنا ((نستخلص من هذه النصوص ومن نصوص أخرى ، أنّ مفهوم البيان عند الجاحظ مفهوم إجرائي ، أي أن العملية الموصلة إلى الفهم والإفهام في حالة اشتغالها ، وإن اقتضى الإجراء التعليمي تقديمها منفصلة أو ساكنة ..نقتنع أن الكتاب قد اتجه في البداية إلى وضع نظرية لمعرفة الكون والإنسان، وتداول هذه المعرفة بالأدلة المختلفة)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ١٩١)لذلك كان((يتنازع البيان عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين مفهومان أو وظيفتان :

١- البيان معرفة : الوظيفة الفهمية.

٢- البيان إقناع : الوظيفة الإقناعية .

الوظيفة الثانية هي الوظيفة الصريحة ، والوظيفة الأولى هي الوظيفة الكامنة المتحكمة في مقدمة الكتاب)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ١٩٥) إن هذين المفهومين للبيان قادا الجاحظ إلى مقايضة البيان بالبلاغة لأننا ((لا نستمر مع الجاحظ غير صفحات في باب البيان حتى نجده يبسمل ويحوقل ثم ينقل الكلام إلى البلاغة وكأنها مرادف للبيان ، ثم لا نستمر طويلاً حتى نجد كلمة خطيب تزاحم كلمة بليغ)) (العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ٢٠٠٥، صفحة ١٢٦) فالبيان لا يتحقق إلا بآلة البلاغة ، وآلة البلاغة تشمل كل عناصر الفعل التواصلي ليقدّم الجاحظ فيما يلي توضيح مفهوم البيان ،والبلاغة ومعانيها عند الأمم في نظرة شاملة مسحية وينتهي بقوله عن البلاغة : ((أوّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة : وذلك أن يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح قليل اللحظ ، متخير اللفظ ...)) (الجاحظ، ١٩٩٨، صفحة ٩٢/١) ومع هذا الشرح الجاحظي لآلة البلاغة قد نقل مفهوم الآلة البلاغية الأرسطية بأجزائها الخمسة ((هذه التقنية البلاغية ، بمعناها الواسع ، تضمُّ خمس عمليات أساسية ... هي الابتكار والترتيب والصياغة والفعل الإيمائي والذاكرة الحافظة)) (بارت، ٢٠١١، صفحة ٨٥)، فالجاحظ على وعي كامل ودراية بمدى قوّة عناصر الآلة البلاغية لأن

((الخطابة قوّة تتكلّف الإقناع الممكن ... والحديث عن القوّة هنا إشارة إلى ملكة الخطابة التي يمتلكها الخطيب والتي تساعده على الإقناع في كل الأمور المفردة أي أي في كافّة المجالات المعرفية)) (قادم، ٢٠١٦، صفحة ٦٣) وما الذي ينتج بتمام هذه الآلة من أثر للقول الفعّال في توجيه الاعتقاد وتقوية الظن بالإقناع.

إنّ الأثر الجاحظي في تشكيل حدود علم البلاغة الواصف كان بالغاً ، واستمرت آثاره إلى عصرنا الراهن ، فلا أحد ممن سبق الجاحظ قد أحاط بمفهوم البلاغة الكلية ، وقدّم مفاهيماً وحدوداً للصناعة البيانية و المادة البلاغية وما اشتملت عليه من خصائص مثل النسبية ونظرية المواضع والمقامات وتصنيف الوجوه البلاغية وظبطها وتحديد مفهوم الاختيار ، والتي تبيّنت آثارها جلية في تفكير الكثير من البلاغيين اللاحقين من خلال أفق تلقيهم لقراءة الجاحظ كالعسكري وابن سنان الخفاجي والسكاكي وحازم القرطاجني ، فالبلاغة عند الجاحظ ((من جانب نظري وتطبيقي بلاغة متكاملة الجوانب ، لا تهتمّ فقط بالخطاب الأدبي الإقناعي ، بل هي سيمياء عامة تتخذ من الفهم والبيان مرجعاً لها)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ٧٩) وهذه هي الوظيفة البلاغية التي أرسى الجاحظ في بيانه أسسها وقواعدها .

ثالثاً : بلاغة البديع ومحاسن الكلام :

لا غرو أن يمثّل تيار بلاغة البديع ومحاسن الكلام ، أكثر التيارات البلاغية امتداداً زمنياً بدءاً من رائده الأول الشاعر والأديب العباسي ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) وصولاً إلى القرن الهجري التاسع عند ابن حِجّة الحموي (ت ٨٣٧هـ) في كتابه خزانة الأدب ، فهذا التيار الذي تأسس على يد ابن المعتز في كتابه الفريد من حيث المحاولة الأولى في بلاغة البديع والذي كان معنوناً بهذا الاسم يعدّ ((نقطة تحوّل هامة في مسار الدراسات البلاغية ، وعلامة بارزة في مجال النظرية الأدبية عند العرب)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٣٣٤) فكتاب البديع لابن المعتز له ((مكانته في تاريخ البلاغة تشبه مكانة كتاب سيبويه في تاريخ البحوث اللغوية والنحوية ؛ فهو باجماع الباحثين عرباً ومستشرقين أوّل كتابٍ جعل من البلاغة غاية في تأليفه ، ومحاولة لإرساء أصول بلاغة عربية صريحة .)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٣٣٤) وهنا يلتمع السؤال ما الذي جعل كتاب البديع يتبوَّأ هذه المكانة المتفرّدة بين كتب البلاغة والأدب ؟ ستكون الإجابه ليس بما حواه الكتاب من مضمون أو تبويبات ، بل إنّ قيمة كتاب البديع لابن المعتز تكمن في ((صدوره عن درجة عالية من الوعي بمداه وحدوده وتحرّك صاحبه من رؤية واضحة ومنطلقات وغايات جعلت مادته خاضعة لتلك الرؤية لا تتجاوزها ، فجاء كتاباً مختصراً مشذباً خالياً من كل مظاهر الاستطراد والحشو)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٣٣٨) وهو بهذا الوعي وعمق الرؤية شكل مرحلة مهمة في مسيرة البلاغة العربية .

وقد يُهَيّأ للسامع أنّ تيار بلاغة البديع هو تيار يهتمُّ بالشعر عند المولّدين في العصر العباسي ، وما شهد من صراع بين أنصار المذهب القديم وأنصار المذهب المحدث ، أو هو القسم الأخير من مباحث بلاغة الوجوه المختزلة بل على العكس ((فالمقصود بالبديع ليس علم البديع الذي استوى في بلاغة تلخيص القزويني وشرّاحه ، مجرّد محسنات يرصدها البلاغي ضمن علوم البلاغة الثلاثة)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ١٢٤) لأنّ المقصود بالبديع من حيث المشروع والمنجز ((هو مدرسة بلاغية لها أسسها ودعائمها وخطتها التي تفارق البلاغة المدرسية التعليمية)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ١٢٤) ليكون مصطلح البديع ((في هذا الاتجاه هو مرادفٌ لمصطلح البلاغة ... وإنّ نشأة البلاغة العربية تقوم شاهداً على ضرورة فهم البديع باعتباره مرادفاً للبلاغة)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ١٢٥) فالبديع وفق رؤية هذا التيار هو البلاغة ، وإن كان هذا المصطلح هو ما اتهمَّ به الشعراء المولدون من إكثارهم وولعهم بالتحسين والغرابة ،لكنّ ابن المعتز يمنح هذا المصطلح مساحة رؤيوية بلاغية ليست مجرّد ((محسّنات وليس تزييناً لفظياً ، ولا يختصّ بمذهبٍ شعري أو أسلوبٍ في الخطاب دون غيره)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ١٢٧) بل إنّ هذا التيار يمثّلُ ((بلاغة عامّة تجمع كافة الخطط التي يرصدها الخطاب لينسج شعريّته وخطابيّته)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ١٢٧) ولاشيء أجلى من توضيح ابن المعتز لحدود هذا المصطلح في مقدّمة كتاب البديع ((قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سمّاه المحدثون البديع ليعلم أن بشّاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا ولكنّه كثر في أشعارهم فعُرِف في زمانهم حتى سُمّيَ بهذا الاسم فأُعرِب عنّه ودلّ عليه)) (ابن المعتز، ٢٠١٢، صفحة ٩) فتقديم ابن المعتز لمفهوم البديع وقِدَمه يحدّد مدخلات ومخرجات هذا المشروع البلاغي الواعد، والذي سيمتدُّ ويتنامى فيما بعد ، لأنّه مشروع مرن يستند على منهج علمي استقرائي واصف وغير معياري صارم ((بل إنّ ابن المعتز رغم تقنينه للمذهب البديعي نراه يأتي بأبيات لبشّارخالية من البديع ...ومع ذلك يسميها بديعاً وهذا دليل على أنّ البديع بمعناه العامّ هو كلّ صورة فنية ذات منحىً فنّي فيه جِدّةٌ أو مايثير الإعجاب)) (عيد، دون تاريخ، صفحة ٢٥) والأبيات لبشار بن برد هي : [البسيط –ق– المتواتر]

أَمِن تَجَنّي حَبيـــــبٍ راحَ غَضبانا أَصبَحتَ في سَكَراتِ المَوتِ سَكرانا

لا تَعرِفُ النَــومَ مِن شَوقٍ إِلى شَجَنٍ كَأَنَّما لا تَرى لِلنـــــاسِ أَشجانا

أَوَدُّ مَن لَم يَنَلـــني مِن مَـــوَدَّتِهِ إِلا سَلاماً يَرِدُّ القَـــلبَ حَيرانا

يا قَـــومِ أَذني لِبَعضِ الحَيِّ عاشِقَةٌ وَالأُذنُ تَعشَــقُ قَبلَ العَينِ أَحيانا

وقد علّق ابن المعتز على هذه الأبيات بقوله : ((وهذا معنىً بديع لم يسبقه إليه أحدٌ . وهذه قصيدة طويلة ، وقد قدّمنا أننا في كتابنا هذا نروم الإيجاز و لاختصار)) (ابن المعتز، ٢٠١٢، الصفحات ٢٨-٢٩) هذه المرونة والاستقراء البلاغي الواصف هو ما أشار إليه ابن المعتز ((ولعلّ بعض من قصّر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدثه ونفسه وتمنيه مشاركتنا في فضيلته ،فيسمّي فنّاً من فنون البديع بغير ما سمّيناه به، أو يزيد في الباب من أبوابه كلاماً منثوراً ، أو يفسّرُ شعراً لم نفسّره ، أو يذكر شعراً قد تركناه ، ولم نذكره...)) (عيد، دون تاريخ، صفحة ١٢) فابن المعتز بقوله هذا يفتح للآخرين باب الإضافة والاجتهاد فهو صاحب مشروع بلاغة عامة كلية تشمل جميع أنواع الخطاب الإنشائي ، ولا أدلّ على ذلك من إضافة أبي هلال العسكري في كتابه الصناعتين ستة أنواع جديدة مبتكرة لمحاسن الكلام حتى وصلت أبواب البديع عند أسامة بن منقذ (ت ٥٨٤هـ) في كتابه البديع في نقد الشعر إلى ما يقارب المئة باباً ((هذا كتاب جمعت فيه ما تفرّق في كتب العلماء المتقدمين المصنّفة في نقد الشعر ...فيكون جملة ما اشتمل عليه كتابنا خمسة هذا وتسعين باباً)) (ابن منقذ، ١٩٦٠، صفحة ٨) وهذا ما وقف عنده فيما بعد ابن أبي الإصبع وانتقده بشدّة.

لقد امتدّ تيار بلاغة البديع وأصبح مدرسة بلاغية أدبية تتقصّى أدبية النصّ الفني وجمالياته ، فتجنّس الصور البديعية وتنظمها وتشرحها فلقد ((تبارى المؤلّفون في البديع في الاستكثار من الصور فأوصلوها إلى العشرات بل إلى المئات...وهذا ما أثار انتباه بعض المؤلّفين المتأخرين المطلعين على الفكر المنطقي وفلسفة العلوم ... فحاولوا تجنيس الصور البديعية بإرجاعها إلى مقولات عامّة)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٦٢) ولعلّ من أبرزهم أبو القاسم السلجماسي (ت نحو ٧٠٤هـ) في كتابه المنزع البديع ، وابن البنّاء المراكشي (ت ٧٢١هـ) في كتابه الروض المريع ، وقد بدا جالياً في كتابيهما التأثر بالفلسفة الأرسطية من خلال القراءة العربية ؛ ولهذا نجد أنّ السلجماسي في تنظيم سجلات البديع وفق القوانين الفلسفية الأرسطية يقول : ((فقصدنا في هذا الكتاب ...إحصاء قوانين أساليب النظوم التي تشتمل عليها الصناعة الموضوعة لعلم البيان وأساليب البديع ، وتجنيسها في التصنيف،... وتحرير القوانين الكلية ، وتجريدها من المواد الجزئية بقدر الطاقة .)) (السلجماسي، ١٩٨٠، صفحة ١٨٠).

أما ابن البناء المراكشي فينحو منحى فلسفياً في تنظيم وضبط سجلات البديع في نفس مسار السلجماسي الفلسفي ولكن بطرح مختلف فيقول ((والصناعة المتكّلفة بذلك هي صناعة البديع ، والذي منه هذه الصناعة هو علم البيان . والصناعة ... إنما تعطي القوانين الكلية التي تنضبط بها الجزئيات المندرجة تحتها ، والعلم يميز الكليات ويميّز الجزئيات ...)) (المراكشي، ١٩٨٥، صفحة ٨٨) ، لكنّ من أسبق من أثار هذه الترهل العددي وضبطه منهجياً برؤية بلاغية هو زكي الدين بن أبي الإصبع (ت ٦٥٤هـ) في كتابه تحرير التحبير فيقول : ((

ولا أدعي سلامة وضعي دون أبناء جنسي ، غير أنّي توخّيت تحرير ما جمعته من هذه الكتب جهدي ، ودقّقت النظر حسب طاقتي ، فتحرّست من التوارد ، وتجنّبت التداخل ، ونقحت مايجب تنقيحه ، وصحّحت ما قدرت على تصحيحه ، ووضعت كل شاهدٍ في موضعه)) (ابن أبي الإصبع، دون تاريخ، الصفحات ٩١-٩٢) فلقد قام ابن أبي الأصبح بجمع أكثر من أربعين كتاباً في البديع بدءاً من عبدالله بن المعتز وانتهاءً بأسامة بن منقذ في كتابه البديع في نقد الشعر والذي قال عنه ابن أبي الإصبع ((وإذا وصلت إلى بديع ابن منقذ وصلت إلى الخبط والفساد العظيم ، والجمع من أشتات الخطأ...)) (ابن أبي الإصبع، دون تاريخ، صفحة ٩١) فالجهد العظيم الذي بذله ابن أبي الإصبع كان يمثّل نهايات البحث البلاغي البديعي في التجنيس والتنظيم ، وقد وصل هذا السجل البديعي الضخم المنظّم إلى ابن حِجّة الحموي ليكون كتابه خزانة الأدب من أعظم الشروح البديعية في القرن التاسع الهجري ممّا يؤكّد اعتبار ابن حِجّة الحموي ابن أبي الأصبح مرجعاً له في شروحه البديعية ومرتكزاً في منطلقاته قوله ((وإذا تأمّل الناقد اللبيب البيت بكماله ظهر له تفاوت القسمين وقال ، أعني ابن أبي الإصبع : إذا وصلت إلى قول البحتري في هذا الباب وصلت إلى غاية لا تدرك وهي قوله : [الطويل- ق - المتدارك]

بوديَ لو يهوى العذولُ ويعشقُ ليعلمَ أسبابَ لبهوى كيفَ تعلَقُ

انتهى كلام زكي الدين ابن أبي الإصبع)) (الحموي، ٢٠٠١، الصفحات ٣٠٨/١-٣٠٩).

رابعاً : بلاغة أسرار الكلام والمناسبة التداولية :

شهد القرن الخامس الهجري انبثاق مشروعين بلاغيين يرتكز بحثهما البلاغي على مفهوم النسق والبنية، وهو البحث البلاغي الذي ينحو إلى استكشاف الجوهر الذي يحضر في كلّ أجزاء ويجعلها تتفاعل مجتمعة ، فهو النسق الذي يقصد به ((مركّبٌ من عناصر مختلفة تضبطها علاقة قائمة فيما بينها)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ٧٦) فالنسق ليس البنية فهو من مضامين البنية ومرتكزاتها فهو النظام الذي يحكم عناصرها ؛ لأنّ البنية في أدقّ تقعيداتها الاصطلاحية ((هي نسق من العناصر أو الوحدات المنتظمة فيما بينها تنظيماً داخلياً)) (بوعافية، ٢٠٢٢، صفحة ٧٦) ولا بدّ من التفريق بين النسق والسياق ، فالسياق هو ((العلاقات بين الوحات اللسانية داخل التركيب : سياق كلمة أو وحدة صوتية مثلاً . وهو ما يسمّيه بعض البلاغيين المقام الداخلي في الأدب)) (العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ٢٠٠٥، صفحة ١٢٢)، فالتفكير البلاغي في هذه المرحلة انتقل إلى مرحلة البحث في الجوهر من خلال مفهوم النسق والبنية عند أبرز قطبي البلاغة في القرن الخامس الهجري وهما ابن سنان الخفاجي في كتابه سرُّ الفصاحة ، وعبد القاهر الجرجاني في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز .

إنّ البحث البلاغي النسقي البنيوي لم يكن محدثاً بل إنّ البحث العلمي العربي كان سابقاً ((عندما غلب القياس على الرواية ، القياس الذي يقوم على استقراء الظواهر واستخراج نظامها الخفي الذي يترجمه الاطراد)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ١٥) فقد ألّفت كتب تبحث في العلل والأسرار من أبرزها كتاب ابن جنّي سرُّ صناعة الإعراب ، ليدخل التفكير البلاغي في القرن الخامس هذه المنطقة المألوفة من قبل ، والذي سيكون له الأثر البالغ عند علماء البلاغة اللاحقين ومن أبرزهم حازم القرطاجنّي الذي كان ابن سنان الخفاجي من أبرز روافده البلاغية في كتابه منهاج البلغاء ((وتشير قرائن كثيرة إلى أنّ حازماً القرطاجنّي الذي استفاد كثيراً من ابن سنان ، وقارب موقفه في قضايا كثيرة قد استفاد كثيراً مفهوم النسبة والتناسب .ومن الراجح عندي أنّ القسم المفقود من الكتـاب ؛ القسم المخصّص للفظ مبني بشكل ما على عمـل ابن سنان .)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٤٦١) كذلك اقتباسات حازم في أقسام الكتاب الأخرى لآراء ابن سنان يبين أهمية هذا الرفد البلاغي .

يمثّل كتاب سرُّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي محطّة مضيئة في مسيرة البلاغة العربيـة فهو ((أكمل محاولة لضبط مقاييس الفصاحة وأنصع شهادة عن المآزق التي وقع فيها علماء البلاغة نتيجة فصلهم بين الألفاظ والمعاني وإرادة الانتصار لهذا الشقّ أو ذاك)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٣٩٦) فيشكف الخفاجي عن مقاصده في تأليف كتابه الذي يحمل الهمّ النسقي في معرفة المقاييس التي تؤدي إلى الصحة والتناسب ، التي تنتج هارمونية الانسجام والتلاؤم المتجلية في الفصاحة التي يحدّد سرّها ونسقها في قوله :((ومع هذا البيان كلّه فالفصاحة عبارة عن حسن التأليف في الموضوع المختار ... والوجه في اختياره ، وعلى أيّ صفة يكون المَرْضِيُّ منه والمكروه بما فيه مَقْنَعٌ وكفاية)) (الخفاجي، ٢٠١٨، صفحة ١٤٨).

إنّ هذا التعريف والذي لم يطرحه ابن سنان في مقدّمة الكتاب ، لأنّه أراد أن يستكمل عناصر حسن التأليف النسقية بدءاً من الأصوت والحروفُ التي يرتكز عليها سرّ الكتاب ((إنّ الحروف التي هي أصواتٌ تجري من السمع مجرى الألوان من البصر ، ولا شكَّ أنّ الألوان المتباينة إذا جمعت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة ...كانت العلّة في حسن اللفظة المؤلّفة من الحروف المتباعدة هي العلّة في حسن النقوش)) (الخفاجي، ٢٠١٨، صفحة ١٠٧)، وصولاً إلى انسجام القول وتلاؤمه ؛ ليقدّم ابن سنان لنا بلاغة الأناقة والانسجام بين اللفظ ومعناه وبين المبنى ومقتضاه البلاغي المقامي الحَسِن التأليف .

إنّ اشتغال ابن سنان البلاغي باستقرائه للمواد البلاغية وعناصرها بمنهجية وصفية ، قد خطّ مساراً لمن جاء بعده في البحث في جوهر الظواهر البلاغية وهو سرّ الفصاحة والبيان والإحاطة بقوانينها الكلية كما فعل حازم القرطاجني ، لأنّ مفهوم كلّية النصّ كان حاضراً في كتاب ابن سنان ، وإن لم يذكره صراحة ، فكانت رؤيته

لضبط مقاييس الفصاحة ((أكثر المحاولات إغراقاً في الانتصار إلى اللفظ وتخصيصه بالمزية والفضل في جودة الكلام وحُسْنه ...وتداخل ميداني الفصاحة والبلاغة ... وتطرّف الخفاجي في تمسّكه بقيمة اللفظ حمل معاصره عبدالقاهر الجرجاني على معارضة هذا التيار بكثير من الحدّة)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٤١٣) ومردّ هذه الحدّة للخلاف المذهبي بين الأشاعرة والمعتزلة ، بيد أنّ ما قدّمه الخفاجي من مقاييس ترتكز على أهم عناصر علم النصّ الحديث بدءاً من الاتساق والانسجام وصولاً إلى التماسك النصّي والمناسبة التداولية في أثرّ النصّ الفعّال المعجب بخلوصه من التنافر والقبح واشتماله على عناصر الاتساق والانسجام ، فكان مشروعه يقوم على مبدأ الصحّة والتناسب من حيث العلل الصناعية الخمسة التي استند عليها والتي أصبحت من ضمن ما يعرف بمقدمات العلوم تليها المقاصد ، ليكون منجزه الوصول إلى الاتساق والانسجام النصّي.

واكب مشروع ابن سنان مشروع عبد القاهر الجرجاني والذي نتلمّس مدى حدّة الخلاف بينهما فلقد ((راهن عبد القاهر الجرجاني ، انطلاقاً من تصوّر أشعري يعتبر الكلام معاني نفسية ، ويعادي مقولة المعتزلة التي تجعله أصواتاً ومقاطع)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ١٧) من هذا التصور في كتابي الجرجاني أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز أرتكز الجرجاني على التصوّر الأشعري في تعريف الكلام على الضدّ من تعريف القاضي عبد الجبار المعتزلي الذي يعرف الكلام بأنه ((حروف منظومة ، وأصواتٌ مقطعة)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ١٦٤) فنلفي الجرجاني في كتابيه وإن كانت أقل حضوراً في أسرار البلاغة ((ينطلق من التسليم بتطابق المفهومين .لذلك تركّزت جهوده على ما ترتّب عن الفصل بينهما من مبالغات في تقدير دور اللفظ ونصرته على المعنى ، ومن خطأٍ في تبيّن المداخل إلى أسرار البلاغة ، فكانت مسألة اللفظ والمعنى من المسائل الطاغية في كتابيه ، تكاد تلابس كلّ ما تطرّق إليه بالدرس والتحليل)) (صمّود، ٢٠١٠، الصفحات ٤١٣-٤١٤) لقد شغلت هذه المسألة حيّزاً واسعاً من تفكير الجرجاني البلاغي وكانت حاضرة بجلاء في كتابيه ، فهو لايرى أنّ الفصاحة تكون في الألفاظ ، ولا يوجد لفظً فصيح بقدر ما يستمدّ اللفظ فصاحته في انتظامة في الكلام ويدافع عن موقفه هذا بالاستشهاد ببيتين وردت فيهما نفس اللفظة ولكن كانت في بيت البحتري فصيحة وفي بيت أبي تمام قبيحة وهي لفظة (الأخدع) فقول البحتري : [الطويل-ق-المتدارك]

وإنّي وإن بلّغتـــــني شرفَ الغنى وأعتقتَ من رِقّ المطــامعِ أخدعِ

أمّا في بيت أبي تمّام : (الجرجاني، ١٩٨٨، صفحة ٤٧) [المنسرح-ق- المتراكب]

يا دهرُ قوّم من أخدعيك فلقد أضججتَ هذا الأنام من خرقك

يقول الجرجاني في معرض دفاعه عن رأيه وموقفه البلاغي من أنّ فصاحة اللفظ ليس في وجوده مستقلاً : ((وممّا يشهد لذلك أنّك ترى الكلمة ، تروقك وتؤنسك في موضع ، ثمّ تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر ...فتجد لها من الثقل على النفس ، ومن التنغيص والتكدير ، أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفّة ، ومن الإيناس والبهجة)) (الجرجاني، ١٩٨٨، الصفحات ٤٦-٤٧) ويدلّل ما تقدّم من ((نقض الجرجاني الآراء التي تعوّل في الحكم بالجودة الفنية على اللفظ في ذاته لا في معناه)) (صمّود، ٢٠١٠، صفحة ٤١٨) فهو بموقفه يؤكّد توجهه المذهبي الصارم تجاه الرؤية المعتزلية سواء عند الجاحظ أو القاضي عبدالجبار أو ابن سنان الخفاجي وخصوصاً في دلائل الإعجاز ، والمتفحّص لهذا الموقف يجد أنّ الجرجاني على الرغم من موقفه المذهبي ، أنّ هناك قضية أكبر وهي أنه يريد ترسيخ ركائز نظريته في النظم والتي من أبرز منطلقاتها ألّا مزية للفظ إلا بانتظامه في نسيج الكلام ، وهنا يكشف لنا الجرجاني علّة مشروعه البلاغي وكنهه سواءٌ في تقديمه لنظرية البيان في الأسرار ونظرية النظم في الدلائل علم المعاني فيما بعد عند السكاكي فنقتبسه وإن كان مطوّلاً: ((ولم أزل منذ خدمت العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى ((الفصاحة)) و ((البلاغة)) و ((البيان)) و ((البراعة)) وفي بيان المغزى من هذه العبارات ، وتفسير المراد بها، فأجد بعض ذلك كالرمز والإيماء ، والإشارة في خفاء ...ووجدت المعوّل علي أنّ هاهنا نظماً وترتيباً ، وتأليفاً وتركيباً ، وصياغة وتصويراً ، ونسجاً وتحبيراً ، وأنّ سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجاز فيه ، سبيلها في الأشياء التي هي حقيقة فيها ، وأنّه كما يفضل النظمُ النظمَ ، والتأليفُ التأليفَ ...ثمّ يعظم الفضلُ ، وتكثر المزيّة)) (الجرجاني، ١٩٨٨، الصفحات ٣٤-٣٥) فالجرجاني هنا يلخّص نظريته البلاغية في الأسرار والدلائل ، فهو ينظر إلى الغاية ليس في تعدد المصطلحات ، بل في تعاضدها في تشكيل نصّ كلّي فعّال معجب ،ويشتمل على كلّ العناصر من فصاحة وبلاغة وبيان وبراعة.

إنّ نظرية الجرجاني البيانية والنظمية بمراعاة مقاييس البيان والنحو تؤدي إلى نصّ متسق منسجم ، وهذا ما يتجلّى في مشروعه عمق النظر إلى كلّية النصّ ((لقد كان من الطبيعي ... أن يتّجه الجرجاني إلى التمفصل الدلالي وامتداد الجملة ، بقطع النظر عن حدود الشطر ، دون اهتمام بتوازن الفواصل)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٣٦٧)، فلقد كانت تجليات مفهوم بلاغة النصّ الكلي المترابط حاضر في الأسرار قبل الدلائل ، لأنّ نظرية الجرجاني نظرية نصّية فهو يقدّم التمفصل الدلالي على التقطيع النظمي، وإن كان لايغفل دور الجزء المشكّل للكلّ بدءاً من تماسك الجملة إلى وحدة النصّ ، ومن أبرز ما مثّل لذلك التماسك النصي بقوله ((وعلى الجملة فينبغي أن تعلم أنّ المثل الحقيقي والتشبيه الذي هو يسمّى لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل إلّا من جملة من الكلام أو جملتين أو أكثر .حتّى أنّ التشبيه كلّما كان أوغل في كونه عقلياً محضاً كانت الحاجة إليه أكثر)) (الجرجاني، أسرار البلاغة، ١٩٨٩، صفحة ٨٧)، وقد استشهد بمثال تماسك النص بكلّيته واتساق تراكيبه وجمله وانسجامها بعلاقة تبعية متبادلة ؛ لتشكّل متوالية يحكمها نظام منسجم

كما نجده في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (سورة يونس ،الآية ٢٣) ليشير الجرجاني ((كيف كثرت الجمل فيه حتّى أنّك ترى في هذه الآية عشر جمل إذا فصلت ، وهي إن كان قد دخل بعضها في بعض حتّى كأنّها جملة واحدة فإنّ ذلك لايمنع أن تكون صور الجمل معاً حاصلة تشير إليها واحدة واحدة .ثمّ إنّ الشبه منتزعٌ من مجموعها من غير أن يمكن فصل بعضها عن بعض ، وإفراد شطر من شطر حتّى أنّك لو حذفت منها جملة واحدة ، من أيّ موضع كان ، أخلّ ذلك بالمغزى من التشبيه)) (الجرجاني، أسرار البلاغة، ١٩٨٩، صفحة ٨٧) وهذا كنه وجوهر مشروع الجرجاني البلاغي الذي أنتج منجزاً نظرياً من تظافر نظرية البيان والنظم والذي ينتج بلاغة نص متظافر مترابط يتجاوز حدود الشاهد والظاهرة البلاغية – وإن كان لا يغفلها – لتكون منطقة اهتمامها بالنصّ ((المكتفي بذاته ، والمكتمل بدلالته)) (فضل، ١٩٩٢، صفحة ٢٣٢) مهما كان حجمه أو مكوناته ، سواءٌ بقول حكمي أو بعدّة جمل متظافرة متماسكة باتساقٍ وانسجام .

لقد تمخّض من مشروع الجرجاني المنجز النظري الذي يؤسّس لبلاغة النصّ في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز ، والذي يرى محمد العمري أنّ كتاب الأسرار سابق لدلائل الإعجاز فيقول : ((دون الدخول في استعراض الأدلة الجزئية وهي قويّة ، فإنّ القراءة النسقية تبيّن حضور مادّة الأسرار في الدلائل ، وغياب مادّة الدلائل في الأسرار .ولذلك فتصوّر الانتقال من تأليف الأسرار إلى تأليف الدلائل ممكن ، بل راجح)) (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، صفحة ١٥)، ولكن ممّا تجدر الإشارة إليه ((إنّ القضية واحدة في الكتابين نعتمد في ذلك على أنّ الجرجاني بحث في الأسرار عن معايير بلاغة الشعر دون أن يلحّ على الغرض الإعجازي ،أمّا في الدلائل فبحث عن معايير بلاغة الشعر باعتباره معجزة العرب في البلاغة، لينتهي من تحصيل هذه المعايير إلى تفوّق القرآن الكريم)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، الصفحات ٣٤٦-٣٤٧) مع التركيز على المناسبة التداولية في كتاب الدلائل ، لأنّ ((التصوّر التداولي المقصدي في الدلائل ، قد حاول استيعاب المادّة الانزياحية وتهذيبها بجعلها مشروطة بالنظم وتابعة له)) (العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ٢٠١٠، صفحة ٣٤٧) ليتكامل مشروع الجرجاني في بلاغة النصّ بدءاً من اللفظ والمعنى وصولاً إلى النص المعجز في القرآن الكريم ، والمعجب الفعّال المؤثر في التخييل والغرابة الشعرية ، كما أوجزها بهذه الخطاطة محمد العمري في كتابه المحاضرة والمناظرة (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، صفحة ٧٨) :

البلاغة

(الفصاحة ، الحسن)

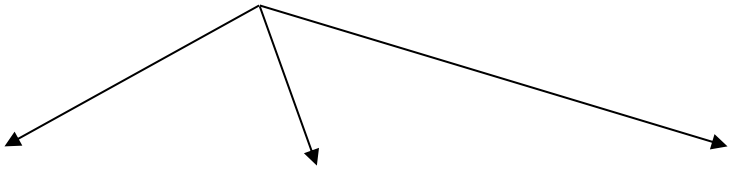

(لفظ) (نظم)

(عدول ، غرابة) [لفظ + نظم] (مناسبة التراكيب للأغراض والمقاصد)

كتاب أسرار البلاغة ((واشتعلَ الرأس شيباً)) (استعارة +التنكير) كتابُ دلائل الإعجاز

لقد شكّل مشروعا ابن سنان الخفاجي وعبد القاهر الجرجاني خلاصة الجهود البلاغية السابقة ، وقمّة ما وصل إليه الدرس البلاغي واستقلاله التام كعلم واصف له أسسه قواعده التجريبية الاستقرائية ، ورسم حدود مملكة البلاغة واستقلالها عن الممالك العلمية المجاورة دون انقطاع التأُثير بينهما والأثر ، فلقد مثّل ((المتن البلاغي الذي تلقاه الجرجاني وابنُ سنان الخفاجي ، ومن لفّ لفّهما، كالنهر الذي جمع روافد قادمة من جغرافيات وطبُّغرافيات شديدة التنوّع . كانت حصيلة خمسة مسارات من البحث عن أسرار الكلام)) (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، صفحة ١٤) ومن هذه الروافد انطلاقا في رحلة البحث عن سرّ البلاغة وجوهرها فقد ((جرّب الجرجاني وصفة التأويل العربي لنظرية المحاكاة حيث أنزل المحاكاة من خشبة المسرح إلى مستوى التركيب الدلالي : التشبيه والتمثيل والاستعارة ، وإظهار البعد النفسي التأثيري للمحاكاة بالحديث عن التوهيم والتخييل ...بتكتم في أسرار البلاغة متوخّياً حلّ مشكلة الطبيعة النفسية غير الصوتية للكلام ...فبدأ رحلة أخرى مستثمراً رصيده النحويّ ، فأضاف مفهوم النظم إلى مفهوم العدول ، وأعطانا كتاب دلائل الإعجاز .وفي هذا السياق الّف معاصره ابن سنان الخفاجي كتاب سرّ الفصاحة مقترحاً بلاغة صوتيّة ، وهي تغطي المنطقة التي تلافاها الجرجاني ، بلاغة

الموازنات الصوتية)) (العمري، المحاضرة والمناظرة، ٢٠١٧، صفحة ١٥) ليكون هذان المشروعان رافداً لما بعدهما من مشاريع بلاغية مهمّة وسارية المفعول والفاعلية إلى عصرنا الراهن ، فمشروع السكّاكي البلاغي ابتدأ من حيث انتهى الجرجاني وكانت بلاغته متواشجة مع علم النص وبلاغة الخطاب ومقاميته (العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ٢٠٠٥، صفحة ٥٠) ، ومشروع حازم القرطاجنّي حيث حلّق بجناحي ابن سنان الخفاجي وابن سينا في عوالم اللفظ والمعنى ،ليصل إلى آفاق التخييل والغرابة الشعرية ، ويحطّ على أرض الإقناع الصلبة ،ويقدم نظريته البلاغية المؤسسة لبلاغته الكلّية النصيّة .

ثبت المصادر والمراجع :

القرآن الكريم

- ابن البنّاء المراكشي. (١٩٨٥). *الروض المريع في صناعة البديع*. (تحقيق: رضوان بن شقرون،) الدار البيضاء، المغرب: دار النشر المغربية.
- ابن السراج. (١٩٩٦). *الأصول في النحو* (الطبعة ٣). (تحقيق: عبد الحسين الفتلي) بيروت، لبنان: مؤسسة الرسالة.
- ابن حِجّة الحموي. (٢٠٠١). *خزانة الأدب وغاية الأرب* (الطبعة ١). (تحقيق: : كوكب دياب) بيروت، لبنان: دار صادر.
- ابن خلكان. (١٩٧٨). *وفيّات الأعيان*. (تحقيق: إحسان عباس) بيروت، لبنان: دار صادر.
- ابن سلاّم الجمحي. (١٩٧٤). *طبقات فحول الشعراء*. (تحقيق: محمد محمد شاكر) القاهرة، مصر: دار المدني.
- ابن سنان الخفاجي. (٢٠١٨). *سرّ الفصاحة* (الطبعة ١). (تحقيق: مصطفى أبو الحجاج) القاهرة، مصر: المكتبة الأزهرية للتراث.
- ابن قتيبة. (١٩٨٢). *الشعر والشعراء* (الطبعة ٢). (تحقيق: محمود محمد شاكر) القاهرة، مصر: دار المعارف.
- أبو الحسن حازم القرطاجني. (٢٠١٤). *منهاجُ البلغاء وسراج الأدباء*. (تحقيق: محمد الحبيب أبو الخوجة) تونس: دار الغرب الإسلامي.
- أبو الفتح عثمان ابن جني. (دون تاريخ). *الخصائص*. (تحقيق: محمد علي النجار) القاهرة: دار الكتب المصرية.

- أبو القاسم السلجماسي. (١٩٨٠). *المنزع البديع* (الطبعة ١). (تحقيق: علاّل الغازي) الرباط، المغرب: مكتبة المعارف.
- أبو زيد القرشي. (دون تاريخ). *جمهرة أشعار العرب*. (تحقيق: علي محمد البجاوي) القاهرة، مصر: مطبعة نهضة مصر.
- أبو فرج الأصفهاني. (٢٠٠٨). *الأغاني* (الطبعة ٣). (تحقيق: إحسان عباس وإبراهيم السعافين،) بيروت، لبنان: دار صادر.
- ابي عبد الله محمد بن موسى المزرباني. (١٩٩٥). *الموشّح في مآخذ العلماء على الشعراء* (الطبعة ١). (تحقيق: محمد حسين شمس الدين) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- أحمد قادم. (٢٠١٦). *بلاغة الحجاج بين التخييل والإقناع* (الطبعة١). عمّان، الأردن: عالم الكتب الحديثة.
- أحمد مطلوب، و حسن البصير. (١٩٩٩). *البلاغة والتطبيق* (الطبعة٢). بغداد، العراق: وزارة التعليم العالي والبحث العلمي.
- أسامة ابن منقذ. (١٩٦٠). *البديع في نقد الشعر* (الطبعة ١). (تحقيق: أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد) القاهرة، مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي.
- الشيباني. (٢٠٠٠). *ديوان النابغة الشيباني* (الطبعة ٣). (قدم له وحققه: أحمد نسيم) القاهرة، مصر: إخراج دار الكتب المصرية.
- بول ريكور. (٢٠١٦). *الاستعارةُ الحيّة* (الطبعة ١). (مراجعة وتقديم: جورج زيناتي ، وترجمة: محمد الولي) بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد.
- حمادي صمّود. (٢٠١٠). *التفكير البلاغي عند العرب إلى القرن السادس الهجري* (الطبعة ٣). بنغازي، ليبيا: دار الكتاب الجديد.
- رجاء عيد. (دون تاريخ). *المذهب البديعي في الشعر والنقد*. الاسكندرية: منشأة المعارف.
- رولان بارت. (٢٠١١). *قراءة جديدة للبلاغة القديمة* (الطبعة ١). (ترجمة: عمر أوكان) القاهرة، مصر: دار رؤية للنشر.
- زكي الدين ابن أبي الإصبع. (دون تاريخ). *تحرير التحبير*. (تحقيق: حنفي محمد شرف) القاهرة، مصر: لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- سيبويه. (١٩٨٨). *الكتاب* (الطبعة ٣). (تحقيق: عبد السلام هارون) القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
- شكري عزيز ماضي. (٢٠١٣). *في نظرية الأدب* (المطبعة ٤). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

- شوقي ضيف. (١٩٩٠). *البلاغة تطوّر وتاريخ* (الطبعة ٨). القاهرة، مصر: دار المعارف.
- صلاح فضل. (١٩٩٢). *بلاغة الخطاب وعلم النص* (اطبعة ١). الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون.
- عبد الرحمن بن محمد ابن خلدون. (٢٠٠٤). *مقدّمة ابن خلدون* (الطبعة ١). (تحقيق: عبد الله محمد الدرويش) دمشق، سوريا: دار يعرب.
- عبد القاهر الجرجاني. (١٩٨٨). *دلائل الإعجاز*. (تحقيق: محمد رشيد رضا) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- عبد القاهر الجرجاني. (١٩٨٩). *أسرار البلاغة* (الطبعة ١). (حققه: السيد محمد رشيد رضا) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.
- عبد الله ابن المعتز. (٢٠١٢). *كتاب البديع*. (تحقيق: عرفان مطرجي) بيروت، لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية.
- عمرو بن بحر الجاحظ. (١٩٩٨). *البيان والتبيين* (الطبعة ٧). (تحقيق: عبد السلام هارون) القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي.
- عيد بلبع. (المجلد ١/٢٦ العدد ١٠٤, ٢٠١٨). نشأة البلاغة العربية قراءة أخرى. *مجلة فصول (آفاق البلاغة العربية)*.
- كامل سلمان الجبوري. (٢٠٠٢). *معجم الأدباء من العصر الجاهلي إلى ٢٠٠٢*. بيروت: دار الكتب العلمية.
- محمد العمري. (٢٠٠٤). *نظرية الأدب في القرن العشرين* (الطبعة٢). الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
- محمد العمري. (٢٠٠٥). *البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول* (الطبعة١). الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
- محمد العمري. (٢٠١٠). *البلاغة العربية أصولها وامتداداتها*. الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
- محمد العمري. (٢٠١٣). *أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة* (الطبعة ١). الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
- محمد العمري. (٢٠١٧). *المحاضرة والمناظرة* (الطبعة ١). الدار البيضاء، المغرب: أفريقيا الشرق.
- محمد بن أحمد الأبشيهي. (١٩٥٢). *المستطرف في كل فنّ مستظرف*. القاهرة، مصر: مكتبة مصطفى البابي وأولاده.

- محمد سرحان. (٢٠١٤). *مناهج البحث العلمي* (الطبعة ٣). صنعاء، اليمن: مكتبة الوسيطة للطباعة والنشر.
- محمد عبد الرزاق بوعافية. (٢٠٢٢). *البلاغة العربية والبلاغات الجديدة* (الطبعة ١). إربد، الأردن: عالم الكتب الحديثة.
- محمد مشبال. (٢٠١٨). *في بلاغة الحجاج* (الطبعة ١). عمان، لبنان: دار كنوز المعرفة.